الإيمان.. والإكراه

فى الحديث عن سبيل الإنسان إلى تحصيل «الإيمان» الدينى، وهل من الممكن أن يكون «الإكراه» ـ الذى هو ثمرة طبيعية للحرب الدينية ـ سبيلاً من سبل تحصيل «الإيمان» الدينى؟ . . فى هذا الحديث تبرز لنا بدهيات عقلية لا يصح أن تغيب عن عقل باحث متأمل فى هذا الموضوع، بدهيات تتعلق بطبيعة «الإيمان» بالدين، ومن ثم بالسبل التى يمكن بها، دون غيرها، تحصيل هذا «الإيمان».

«فالإيمان» . . هو تصديق بالقلب، أى يقين قلبى يستقر فى داخل الإنسان، أما الأعمال الظاهرة ـ ومنها الشعائر والعبادات ـ فإنها «إسلام» أى ترجمة وبيان لما فى قلب الإنسان، تتخذ صورة الطاعة والانقياد، وإسلام الوجه لرب الدين ـ سبحانه وتعالى . . وقد تكون هذه الطاعة مصنوعة ومصطنعة إذا خلا القلب من الإيمان الحقيقى، أى إذا افتقد التصديق البالغ درجة اليقين . .

وما دام «الإيمان» تصديقًا قلبيًا يبلغ حد اليقين، وخافيًا عن الأعين، ومستعصيًا على رقابة الرقباء ورصد الراصدين، فإن حصوله وتحصيله،

بداهة، لا يمكن أن يتم إلا بالإقناع والاقتناع؛ ذلك لأن الإكراه والجبر والترهيب قد يثمر «إسلامًا» و«تسليمًا» وقد يؤدى إلى «نفاق»، بينما يظل القلب خاليًا من «التصديق اليقين»، أى خاليًا من الإيمان، ومن هنا كانت بداهة القرآن البسيطة والمعجزة معًا! عندما حدد الله فيه للرسول ﷺ، سبل الدعوة إلى سبيله فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]... فالناس، فى الفكر، طبقات متفاوتة.. منهم أهل النظر والتدبر والتأمل، ودعوة هؤلاء إلى الدين سبيلها (الحكمة) ـ وهو المصطلح العربى الإسلامى المرادف لمصطلح ـ (الفلسفة) ـ. ومنهم العامة والجمهور، ودعوتهم إلى الدين سبيلها (الموعظة) والأدلة الخطابية الوعظية التى تتوجه إلى المشاعر والقلوب. ومنهم أوساط يتوسطون بين أهل الحكمة وعامة الجمهور، وطريق الجدل هو المفيد فى إقناعهم واجتذابهم إلى سبيل الله.

وتحديد هذه الوسائل، كطرق وحيدة لتحصيل الإيمان، ينفى، بداهة أيضًا، أن يكون الإكراه ـ والقتال إكراه مسلح وعنيف ـ سبيلاً من سبل تحصيل الإيمان.. والقرآن الكريم يعبر عن هذه الحقيقة البدهية، فيقول تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فهو يؤسس أمر الإيمان على الحرية والاختيار عند الإنسان، وينفى أن يكون القسر والجبر سبيلاً لتحصيله، حتى ولو كان هذا القسر والجبر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو القادر على كل شيء؛ لأنه يقول تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1] [يونس: ٩٩].

ونفى الله ـ سبحانه ـ أن يكون «الإكراه» سبيلاً لتحصيل «الإيمان» يسهم فى تفسير طبيعة مهمة الرسول ﷺ، وطبيعة وسائله لنشر دين الإسلام، فهو «مذكِّر» بدين الله، وليس «بمصيطر» على القلوب حتى يكرهها على الإيمان ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

[الغاشية: ٢١ ـ ٢٢].

. . وفى هذه الآية «المحكمة»، التى لم يصبها «النسخ»، على الأصح، يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م): «إنها تحدد الأمر الذى بعث الله لأجله نبيه محمد ﷺ، وهو تذكير الناس بما نسوه من أمر ربهم، فليس فى سلطانه ﷺ، أن يخلق الاعتقاد فيهم، ولا من المفروض عليه أن يقوم رقيبًا

(١) وانظر فى هذا المعنى تفسير «الكشاف» للزمخشرى. جـ ١ ص ٣٨٧. طبعة بيروت «دار الفكر» مصورة عن طبعة الحلبى المصرية.

على قلوبهم، ولا مصيطرًا، أى متسلطًا، عليهم. . فالقهر لا يحدث إيمانًا، والإكراه لا أثر له فى الدين. . »[1].

والإسلام عندما ينبه، من خلال قرآنه الكريم، على أن الإكراه فى الدين مرفوض؛ لأنه لا يمكن أن يثمر إيمانًا يعتد به الله ـ سبحانه ـ فإنه يعلمنا ـ كما يرى الإمام محمد عبده ـ ضمن ما يعلمنا ـ حقيقتين مهمتين:

الأولى: أن ما شهده تاريخ انتشار الأديان ـ خاصة قبل ظهور الإسلام ـ من حروب أكرهت أقوامًا على اعتناق الدين، هى نشاطات سياسية وحروب سياسية لا علاقة لها بالدين، حتى وإن رفع أصحابها اعلام الدين واستظلوا بألويته ورياته. . فليست هناك حروب دينية؛ لأن غايات الدين والإيمان بعقائده لا تتحقق بالإكراه ـ والحرب والقتال إكراه مسلح وعنيف ـ وما سمى بالحروب الدينية إن هو إلا نشاط سياسى وقتال سياسى، لا دينى. . «لقد كان معهودًا عند بعض الملل حمل الناس على الدخول فى دينهم بالإكراه. . وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين؛ لأن الإيمان ـ وهو أصل الدين وجوهره ـ عبارة عن إذعان النفس، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه، وإنما يكون بالبيان والبرهان. . ومن هنا كانت آية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام وركنًا عظيمًا من أركان سياسته، فهو لا يجيز

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ٥ ص ٣٩٦. دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ سنة ١٩٧٢م.

إكراه أحد على الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يكره أحداً من أهله على الخروج منه . . . » .

والثانية : أن الجهاد فى سبيل الله ـ وهو أعم من القتال؛ لأنه يشمل «بذل ما فى الوسع من القول والفعل» واحتمال المشقة بوجه عام، وبمختلف السبل ـ إن هذا الجهاد ـ والقتال منه بوجه خاص ـ على عكس ما يدعى البعض ـ ليس ركنًا من أركان الدين، بل وليس من جوهر الدين ومقاصده . . فالقتال ليس سبيلاً من سبل الدعوة إلى الدين، وهو لم ولن يكون أداة من أدوات تحصيل اليقين والتصديق القلبى، الذى هو «الإيمان»، وإنما هو ـ الجهاد القتالى ـ أداة دفاعية يستخدمها المسلمون لحماية حرية الدعوة والدعاة وحرية الاعتقاد إذا اعتدى عليها المعتدون . . «فالجهاد من الدين بهذا الاعتبار، أى أنه ليس من جوهره ومقاصده، وإنما هو سياج له، فهو أمر سياسى لازم له للضرورة، ولا التفات لما يهذى به العوام، ومعلموهم الطغام[1]؛ إذ يزعمون أن الدين قام بالسيف، وأن الجهاد مطلوب لذاته، والقرآن ـ فى جملته وتفصيله ـ حجة عليهم . . »[2] .

ونحن نستطيع أن نطمئن كل الاطمئنان إلى صياغة الإمام محمد عبده لهذه القضية . . قضية أن الجهاد ـ والقتال منه بخاصة ـ ليس دينًا، أى ليس ركنًا من أركان الدين، ولا ذا طبيعة وفلسفة دينية، ولا هو من

(١) الطغام ـ بفتح الطاء والغين ـ مفردها طغامة : الأراذل والحمقى.
(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ٤ ص ٧٣٢ ـ ٧٣٣ .

جوهر الدين ومقاصده، وإنما هو أمر سياسى، علاقته بالدين لا تتعدى علاقة السياج اللازم لحرية الدعوة إلى الدين وحرية الدعاة وحرية الاعتقاد.. علاقة هذا السياج بما فى داخله من شروط للحرية وأركان لحرية الدعوة والاعتقاد.. نستطيع أن نطمئن لهذه الصياغة، بل وأن نزداد اطمئنانًا، إذا نحن بحثنا عن أركان الإسلام فوجدناها خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.. وإقامة الصلاة.. وإيتاء الزكاة.. وصوم رمضان.. وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.. فهى أركان خمسة، وليس فيها الجهاد ولا القتال[1]!..

وكذلك الحال إذا نحن بحثنا عن أركان الإيمان.. فهى ستة: الإيمان بالله.. والملائكة.. والكتب المنزلة على الرسل.. والتصديق بالرسل.. واليوم الآخر.. والتسليم بالقدر.. فهى أركان ستة، وليس فيها الجهاد ولا القتال!..

وكذلك الحال إذا نحن بحثنا عن أركان الإحسان.. تلك التى تلخصها عبارة: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك!..**» وكما هو واضح، فليس فيها أيضًا ـ إشارة إلى الجهاد والقتال!..

وكذلك إذا نحن بحثنا عن أصول الإيمان.. وهى ثلاثة: الألوهية.. والنبوة.. واليوم الآخر.. وليس فيها الجهاد ولا القتال[2]!..

---

(١) ابن تيمية (منهاج السنة) جـ ١ ص ٧٠ ـ ٧٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م.

(٢) الغزالى (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص ١٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

هكذا حدد الإسلام القضية.. فالإيمان تصديق ويقين قلبى لا سلطان لبشر عليه.. ومن ثم فإن السبيل إليه هو الإقناع والاقتناع، المتمثلان فى الدعوة بالحكمة، والموعظة، والجدل.. ولا إكراه في الدين، ومن ثم فليس هناك قتال دينى ولا حرب دينية، اللهم إلا من حيث كونهما أداة سياسية يقف استخدامها عند حدود حماية الدعوة وحرية الدعاة إليها وحرية الاعتقاد بها من عدوان المعتدين.

أما أولئك الذين يجهدون أنفسهم ويجهدون الحقائق ـ النصوص ـ ليوهموا العامة أن القتال ركن من أركان الإسلام، لمجرد أن الله قد «كتبه» على المسلمين، مستخدمًا الفعل «كتب» ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وأنه سبحانه ـ قد استخدم ذات الفعل ـ «كتب» ـ فى تقرير فرضية الأركان الإسلامية، قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أما أولئك الذين يستندون إلى هذا الاتفاق فى استخدام الفعل «كتب» قافزين إلى القول بأن فى ذلك الدليل على أن «القتال، مثل الصلاة والصوم، من أركان الإسلام..»[1].. أما هؤلاء فإن «حجتهم»

(١) الإمام الشهيد حسن البنا (رسالة الجهاد» ص ٦٥ ـ ٦٦، طبعة القاهرة ـ ضمن مجموعة عنوانها «الجهاد فى سبيل الله» سنة ١٩٧٧م.

لا تصمد حتى للنظرة الأولى فى آيات القرآن الكريم . . ذلك أننا واجدون آيات القرآن تستخدم الفعل «كتب» فى تبيان تشريع الله لأمور كثيرة، ليست كلها «أركانًا» بل ومنها ما ليس من «الفرائض» فى شىء!! . .

* «فالقصاص» . . قد «كتبه» الله على المؤمنين . . ولم يقل أحد إنه من أركان الإسلام ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨].

* و«الوصية» . . يوصى بها الميت، قد «كتبها» الله. ولم يقل أحد إنها ركن من أركان الإسلام.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

* «وحقوق يتامى النساء» . . «كتب» الله مراعاتها . . ولم يزعم زاعم أنها من أركان الإسلام.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧].

فاستخدام الفعل «كتب» عند حديث القرآن الكريم عن «القتال» لا يمكن أن يدخل «القتال» ركنًا من أركان الإسلام، فيجعله «دينا» يتدين به

الإنسان . . ذلك أن علاقة «الدين» «بالوسائل والسبل» التى تقتضيها حماية دعوته وحرية دعاته، وإن لم تصل إلى درجة «المغايرة والانفصال»، فإنها لا ترقى إلى درجة «الوحدة والاتحاد»! . .

إنه، كما قال الإمام محمد عبده: «ليس من جوهر الدين ولا من مقاصده، وإنما هو سياج له، وهو لذلك، أمر سياسى تقتضيه الضرورة . . ولا يطلب لذاته . . . » على عكس ما يهذى به العوام ومعلموهم الطغام؟! . .

***